صيانة و ترميم فسيفساء البازليكا الكبيرة بتيبازة

حمزة محمد الشريف
جامعة الجزائر 2

تمهيد:

تعد الفسيفساء من أهم الوثائق الأثرية والتاريخية، فمعظم التبليطات بقيت محفوظة تحت الأرض ووصلت لنا كاملة عكس المخلفات الأثرية الأخرى، و لكن بعد عملية التنقيب والإكتشاف عنها تبدأ في التدهور مع مرور الزمن، خاصة تلك التي تركت بالموقع بدون أي عملية صيانة ولا ترميم.

لقد قدمت لنا منطقة شمال إفريقيا ابتداء من نهاية القرن الأول ميلادي[1]، عددا هائلا من الفسيفساء، لهذا تعتبر من أغنى المناطق الفنية، إذ يجب الإشارة إلى أن هذا الفن كان الديكور المفضل عند سكان المنطقة، مما أدى إلى نشأت ورشات محلية تطورت مع الوقت، واكتسب حرفيوها الخبرة والكفاءة الفنية اللازمة، وبدأوا يستقلون تدريجيا عن التأثيرات الخارجية خاصة الإيطالية والشرقية منها، ونلاحظ ذلك من خلال الروائع الفنية التي تعكس الأصالة الإفريقية، والتي تبرز الطابع المحلي الخاص، نستطيع القول أن العصر الذهبي للفسيفساء بشمال إفريقيا يمتد من القرن الثاني إلى غاية أوائل القرن الخامس ميلاد[2].

تخبرنا آخر الإحصائيات التي قامت بها الهيئة الدولية لصيانة وترميم الفسيفساء سنة 2010[3] عن تواجد حوالي 4375 م^2 من فسيفساء التبليط بالجزائر موزعة كالآتي (الشكل 01):

3325 م^2 : معروضة في قاعات المتاحف.

954 م^2 : معروضة بالمواقع (In situ)

96 م^2 : موجودة بالمخازن .

أما فيما يخص مدينة تيبازة فقد أحصينا حوالي 70 تبليط نستطيع توزيعها كالآتي[4]:

- 31 تبليط بالموقع : 10 تبليطات متواجدة ، 21 تبليط إندثر أو تبقى منه إلا القليل.

-40 تبليط بالمتاحف (متحف تيبازة + المتحف الوطني للآثار القديمة): 09 سند أصلي ، 09 سند من الجبس ، 22 سند من الإسمنت.

لقد ذكرنا سابقا أن معظم التبليطات يتم إكتشافها إما في حالة جيدة أو متوسطة الحفظ، فالبعض منها يقلع وينقل إلى المتاحف، والجزء المتبقي يترك في مكان الإكتشاف عرضة لعدة عوامل تلف : النتيجة هي الإندثار الشبه كلي أو الكلي للفسيفساء، وهذا ما سجلناه في موقع تيبازة، فمن أجل المحافظة على التبليطات بالموقع، برمجت سنة 2004 عملية لصيانة وترميم الفسيفساء في مدينة تيبازة، وبالظبط «فسيفساء معلم البازليكا الكبيرة» تحت رعاية وزارة الثقافة، بالتعاون مع هيئة اليونسكو، وكان الهدف من هذه العملية تكوين مختصين في ميدان الصيانة والترميم لكي يباشروا العمل فيما البعد في المواقع لتدعيم مختلف التبليطات المعرضة للتلف.

1 - معلم البازليكا و ملحقاته:

تتواجد البازليكا فوق أعلى نقطة بالموقع الأثري محاذية للسور الدفاعي للمدينة القديمة، وتقابل الهضبة التي يتواجد فيها كل من الفوروم والمعبدين (الصورة 01)، تعد البناية من أوسع المعالم المسيحية في الجزائر مقاساتها تتوزع كالآتي : 54 متر في الطول على 42 متر في العرض، يفترض أنها شيدت باستعمال حجارة المعالم الوثنية، اما فيما يخصص التخطيط، ففي الأصل كانت تحتوي على 09 أروقة، أرضيتها مزينة بملاط مازال ظاهرا إلى يومنا هذا، ماعدا الرواق الرئيسي الذي هو مزخرف بتبليط هندسي محل دراستنا هذه، أما عن التأريخ، فالمعلم يعود إلى القرن الرابع ميلادي[5].

نجد في الناية الشمالية للبازليكا ملحقات منها: مصلى صغير محاذي للبازليكا، قاعة تعميد، حمامات خاصة، إلى جانب عدد هائل من الأحواض والخزانات المائية[6] (المخطط01).

فسيفساء الرواق الرئيسي :

مقاسات الرواق الرئيسي : 46.18 م في الطول على 13.50 متر في العرض، أي بمساحة قدرها 623.43 متر مربع (الصورة 02)، مزين بفسيفساء هندسية الشكل، متعددة الألوان، مقاسات الحاشية : 11 x 4 متر، أما عن المكعبات، فهي مشكلة من مختلف المواد منها الطبيعية: حجارة جيرية، رخامية، ومنها الاصطناعية: طين مشوي، ألوانها متعددة، حيث نجد كلا من اللون الأبيض، الأحمر الآجوري، الأصفر، الأخضر، الأسود، الأزرق، كثافتها في 1 دم^2 هي 32 مكعبة[6].

تركيبة الحاشية عبارة عن زخرفة مشكلة من أمواج متتالية متناوبة الألوان ما بين الأحمر، الأصفر و الأخضر، أما الحقل، فهو مشكل من: تشكيلة هندسية متمثلة في تعرجات، جسدت بمثلثات مسننة سوداء اللون، حددت من الجانبين بصفين من المكعبات السوداء، تتبع مسارا مستقيما ومربعا، أما المربعات فشكلت فيها ضفائر متشابكة متنوعة الألوان.

2 - منهجية العمل الميداني:

بما أن التبليط مساحته كبيرة، فكان لابد علينا من تحديد رقعة عمل صغيرة بسبب ضيق الوقت، فالبرنامج التكويني كان محددا بمدة 20 يوما، لهذا تم اختيار مساحة 45 متر مربع للصيانة، أي مستطيل مقاساته: 15 م X 03 م، ولضمان السير الحسن لعملية الترميم كان لا بد من تسطير منهجية عمل ميداني تمثلت في الخطوات التالية:

1 - التوثيق الميداني . 2- التشخيص . 3- مختلف التدخلات .

1 - التوثيق الميداني :

يعد التوثيق من أقدم مناهج البحث العلمي، فهو جانب لا يمكن الإستغناء عنه في أي عمل من أعمال الصيانة، فمن خلاله يتم تطبيق النظرية العلمية على المخلفات الأثرية، وبواسطته تصبح للامة ذاكرة تربط ماضيها وحاضرها بمستقبلها، لذا يجب إنتهاجه للرجوع إليه مستقبلا، سواء لإثبات او التأكد من معلومة ما[7]، كما يمكننا التوثيق من وصف الفسيفساء والتطرق إلى تشخيص حالتها، أي تعيين مظاهر التدهور والتغيرات التي طرأت عليها، يجب علينا أيضا البحث عن كل ما تم نشره عن التبليط في حالة دراسة مسبقة.

يسمح التوثيق المنتظم للفسيفساء بتحديد أنسب الطرق والوسائل الملائمة لترميمها، مع متابعة حالة صيانتها، كما نستطيع معاينة مدى فعالية التدخلات التي قمنا بها، وفيما يخص عملنا هذا قمنا بنوعين من التوثيق:

أ-التوثيق الكتابي :

وصفنا حالة التبليط، ثم استعملنا المعلومات المكتسبة لكي تسجل في بطاقة تقنية (أنظر البطاقة رقم 01)، تحمل مختلف مظاهر التلف التي لاحظناها، سواء على سطح المكعبات، أو في مختلف الطبقات، ولقد دعمت هذه البطاقة بتصاميم (التصميم 01).

ب-التوثيق الفوتوغرافي:

قمنا بأخذ صور تسجل حالة الفسيفساء قبل وبعد تدخلات الصيانة (الصورة 04)، كما استغلت بعض الصور لإنجاز تصاميم تبين عليها مختلف المعطيات المتواجدة على

سطح المكعبات، وذلك باستعمال ألوان ورموز توضيحية تكون دائما مصحوبة بمفتاح على شكل قائمة تفسيرية للألوان والرموز(الصورة 05).

2 - التشخيص:

تحدث عملية التنقيب اختلالا مفاجئا في توازن الظروف التي كانت فيها الفسيفساء مستقرة نوعا ما طوال الزمن، لكن بعد الحفر والاكتشاف، أول شيء يحدث هو تغير المناخ الذي كان متواجدا فيه التبليط، من الرطب إلى الجاف بسبب تبخر الماء، فمنذ اكتشاف التبليط في أواخر القرن 19 عشر ميلادي إلى غاية القرن 21 عشرين ميلادي، تعرض هذا الأخير لعدة عوامل تلف من الطبيعية إلى البيولوجية مرورا بالعوامل البشرية التي أدت إلى بروز مظاهر مسجلة في البطاقة التقنية الملحقة بالبحثة.

إن سقوط المطر لفترات طويلة، والتغيرات المناخية بين الحرارة والبرودة، تؤدي إلى تشقق الملاط، وتزعزع البنية التحتية للمكعبات، والنتيجة كانت اندثار في بعض الأماكن للمكعبات، بسبب اضمحلال الطبقة التحتية، كما لاحظنا إنثناء طبقة المكعبات في جانب، وتقببها في جانب آخر من التبليط (الصورة 05)، هذا الاختلال في السطح أدى إلى نشوء تشققات ظاهرة بالعين، أخيرا سجلنا كذلك تقشر المكعبات وتفتتها (الصورة 06).

إن تراكم التربة في الثغرات والوصلات بين المكعبات من بين المؤهلات لنمو النبتات، وتنامي جذورها، وانتشارها المحتوم تحت طبقة المكعبات، ما أدى إلى ظهور كومات لمكعبات متناثرة، كما ان النباتات أصبحت مصدر أكل للحيوانات (الصورة 07).

إلى جانب كل هذه المظاهر، نجد العامل البشري الذي ساهم كذلك في تخريب هذه التحفة الفنية سواء بسبب المشي المباشر فوق التبليط، فالمرور المتكرر للزوار، يعمل بالفعل على تدهور السند الذي يكون قد فقد كل صلابته منذ القدم، إلى جانب تلف ناجم عن عملية الترميم الخاطئة التي جرت في السنوات الماضية، فاستعمال المرمم لمادة الإسمنت كتدعيم للحواف، أدى إلى هشاشة طبقة المكعبات عوضا ان يقويها، لأن صلابة الإسمنت لا تسمح بالفعل إلى أي التحام دائم مع السند القديم، والنتيجة تكون حدوث إنكسار لطبقة المكعبات (الصورة 08).

3 - مختلف التدخلات:

نقصد بذلك مختلف التدخلات التي قمنا بها على التبليط، فلا يمكننا المحافظة على الفسيفساء المعروضة بالموقع إلا بالصيانة المنتظمة التي تسمح من التخفيف من تأثير حدة العوامل الخارجية، لكن هذه التدخلات لن تقض نهائيا على عوامل التلف، وإنما تمكننا

من متابعة ومراقبة التبليطات مع محاولة الإنقاص من مظاهر التلف[8]، وتمثلت هذه التدخلات في : التنظيف والتدعيم.

1 - التنظيف:

يهدف هذا الأخير إلى إزالة جميع ما علق بسطح المكعبات من ترسبات غير ملتحمة، والتي حجبت لنا المشهد الهندسي، كالتراب والغبار...إلخ، لهذا لم نستخدم إلا تقنية التنظيف الميكانيكي، وتفادينا التنظيف الكيميائي، حيث قمنا بالتنظيف الجاف، مستعملين فرشاة ناعمة، ثم استخدمنا مشارط لإزالة بعض الترسبات الملتحمة بسطح المكعبات (الصورة 09)، و في الأخير نستعين بإسفنج مبلل بماء خالي من الأملاح المعدنية، وذلك للتقليل من تأثير المياه على المكعبات والطبقات التحتية، وأثناء عملية التنظيف حاولنا أن نستعمل حدا أدنى من الماء، وتفادينا استعمال المواد الكيميائية، لأنها قد تتلف الفسيفساء، وكانت عملية التنظيف تهدف إلى تقييم حالة التبليط بأكثر دقة، وذلك بجعل سطح الفسيفساء أكثر وضوحا وتساعدنا على تهيئة الفسيفساء لعملية التدعيم.

بعد الإنتهاء من التنظيف، كان لابد من إجراء عملية ما قبل التدعيم (Pré consoli-dation) تمثلت في إلصاق شريط من نسيج قطني على جميع حواف التبليط، بإستعمال غراء أكريليكي بارالوئيد Paraloide B72 مذاب في الأستون بتقدير 20 %، وذلك لتثبيت المكعبات قبل الشروع في نزع الإسمنت الذي وضعه المرمم السابق على الحواف وفي الثغرات(الصورة 10).

2 - التدعيم:

يلعب دورا وقائيا في صيانة الفسيفساء، و كانت أهم التدخلات على الطريقة التالية:

أولا قمنا بتحضير ملاط كلسي وفق مقاييس وخصائص محددة بالنسبة لنوع كل تدخل الذي سوف نقوم به، فكان مشكلا من:

حصة من الجير المائي + حصة من الرمل النهري + حصة من البوزولان، هذا الملاط إستعملناه في مختلف عمليات التدعيم و التي هي:

- إعادة المكعبات المنفصلة إلى أماكنها مع إحترام اتجاهها الأصلي.
- ملأ الفواصل بين المكعبات.
- حماية الحواف عن طريق وضع سدة Solin .
- ملأ الثغرات والكسور.

- في بعض الأماكن التي يوجد بها انفصال بين طبقة المكعبات والطبقة التحتية، قمنا بحقن ملاط كلسي، هدفه ملأ الفراغ وتأمين إعادة الإلتحام بين السند والمكعبات.

آخر عملية قمنا بها هي إعادة توثيق التبليط من جديد، مع سرد كل التدخلات التي قمنا بها، وإظهارها على تصاميم.

خاتمة :

كخلاصة نقول انه لا يمكن إعتبار أي إجراء للصيانة او الترميم كافيا إذا لم يكن مرفوقا بإجراء منتظم ودائم موجه لضمان بقاء التبليطات المصانة لمدة أطول، مع السهر على القيام بمراقبة مستمرة للتبليط، فمن خلال هذا التدخل تم الحفاظ على جزء من تبليط كان بدون شك معرض للإندثار.

الملاحق:

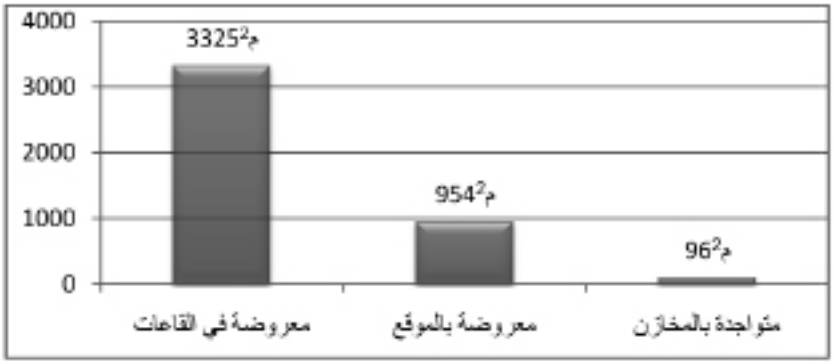

الشكل 01 : رسم بياني يمثل معدل مساحة الفسيفساء بالجزائر عن الباحث

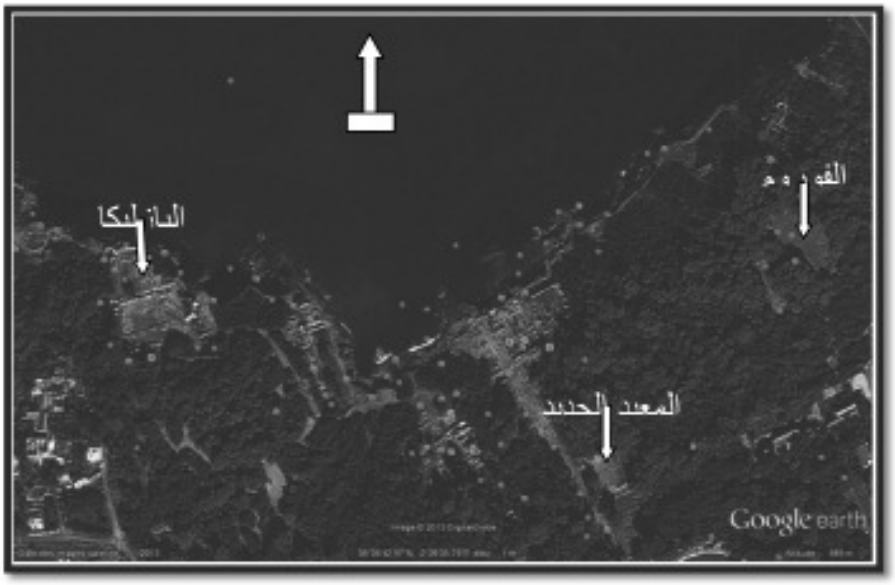

الصورة 01 : مكان تواجد البازليكا الكبيرة عن : Google Earth

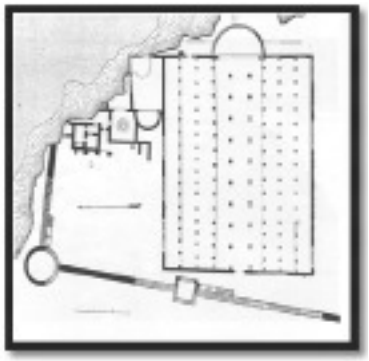

المخطط 01 : مخطط البازليكا و ملحقاتها عن: Gsell

المخطط 01 : مخطط البازليكا و ملحقاتها عن: Gsell

الصورة 02 : الرواق الرئيسي للبازليكا عن الباحث

الصورة 04: عملية التوثيق الميداني عن الباحث

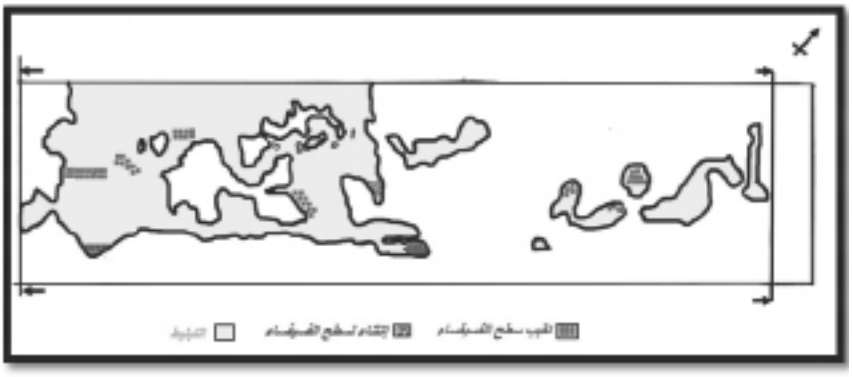

الصورة 04: تصميم يوضح حالة سند التبليط من إنجاز الباحث

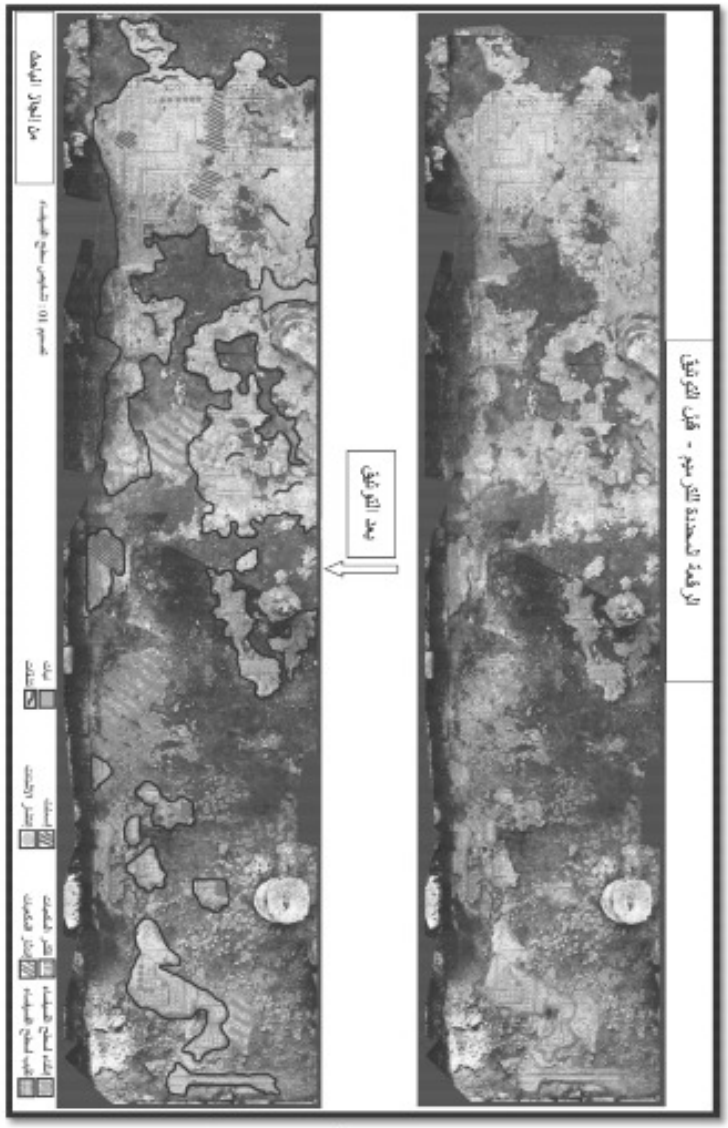

الصورة 05 : انثناء طبقة المكعبات عن الباحث

الصورة 06 : تقشر المكعبات عن الباحث

(عن البـاحـــث)

الصورة 07 : الحيوانات ترعى فوق الفسيفساء

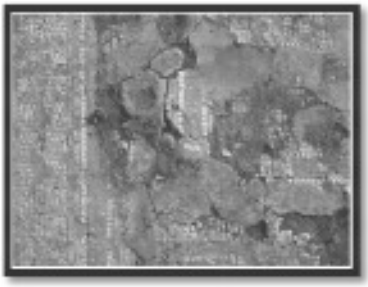

الصورة 08 : مخلفات إستعمال مادة الإسمنت

(عن البـاحـــث)

الصورة 09 : التنظيف الميكانيكي

الصورة 10 : تثبيت الحواف بنسيج

(عن البـاحـــث)

الصورة 11: وضع السدة

الصورة 12: الجزء المرمم من التبليط

(عن البـاحـــث)

البطاقة رقم 01 : بطاقة تقنية تشخص الفسيفساء (من انجاز الباحث)

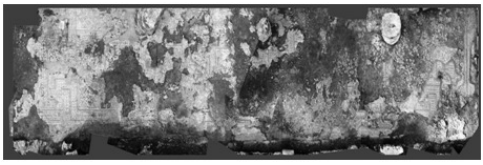

الموقع	تيبازة
المبنى	البازليكا الكبيرة
القاعة	الرواق الرئيسي
طراز التبليط	اوبوس تيسيلاتوم
المقاسات	03 × 15 متر

وصف الفسيفساء :

شكيلة هندسية متمثلة في تعرجات جسدت بمثلثات مسننة سوداء اللون حددت من الجانبين بصفين من المكعبات السوداء، تتبع مسارا مستقيما ومربعا. أما المربعات فشكلت فيها ضفائر متشابكة متنوعة الألوان .

التأريخ	القرن الرابع ميلادي

تشخيص التبليط

السند : أصلي	حالته : متوسطة

مظاهر التلف

ترسبات غير ملتحمة	X	إنثناء السطح	X	مكعبات مندثرة	
ترسبات ملتحمة	X	تقبب السطح	X	آثار حريق	
تشققات	X	ثغرات	X	آثار رطوبة	
كسور		تقشر المكعبات	X	آثار إنسانية	X
تلف بيولوجي	X	تفتت المكعبات	X	آثار حيوانية	X
تدهور الألوان		مكعبات منفصلة	X	أعشاب ونباتات	X

الهوامش:

1) - Lavagne(H.) & Blanda (E.) & Echeveria (A.U), La Mosaïque trésor de la latinité, des origines à Nos jours, Ed.Ars Latina, Paris 2002,p68.

2) - Charles-Picard (G.), « L'age d'or de la mosaïque romaine en Afrique du Nord »,in Dos. Arch. n°31. 1978, p.12.

3) إحصائيات قامت بها هيئة صيانة و ترميم الفسيفساءICCM بالتعاون مع هيئة إيكروم خلال سنة 2010 .

٠) حمزة محمد الشريف، « فسيفساء موريطانيا القيصرية – التبليطات الجنائزية»، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر 2، جوان 2012.

4)- Gui (I.), Duval (N.), et Caillet (J.P), Les basiliques chrétiennes d'Afrique du Nord (inventaire et typologie), T.I, Ed.Inst.d'etudes.Augustiniennes, Paris, 1992, p.24.

5)- Gsell (S.), Les monuments antiques de l'Algérie TII, Ed. Albert Fontemoing,Paris 190, p.319.

6)- Ferdi (s), Hamza (M.C), " Consolidation in situ de la mosaïque de la grande basilique à Tipasa " in the 9th conference of the ICCM, Hammamet, Tunisia 2005, p.290.

7)- لكحل طافر (غنية)، « التراث بين خطر التدمير وإعادة التأهيل «في المؤتمر الدولي الأول للتراث العمراني في الدول الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 29-28 ماي 2010، ص 4.

8)- Chantriaux vicarol (E.), « les mosaïques de pavements », in la conservation en archéologie, Ed.Masson, Paris, 1990, p.216.